

أدب الرحلة الجغرافية العربية

كمصدر للمعرفة التاريخية والأنثروبولوجية

سعيد البوزيدي *

المقدمة

تشكل الرحلة مصدرا مهما للبحث العلمي في العلوم الإنسانية، كما تمثل منبع المعرفة لشتى العلوم التي تهتم بالحياة والإنسان والحيوان عبر التاريخ. وشكل أدب الرحلة أداة معرفية تعرضت إلى جميع نواحي الحياة، حيث يجد المؤرخ والجغرافى وعالم الاجتماع وعالم الاقتصاد ودارس الآداب وغيرهم ضالهم فيه. والرحلة هي سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور. ولا شك أن الرحالة يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظاتهم، وفي درجة اهتمامهم وفي نوع هذا الاهتمام، كما يختلفون أيضا في درجة صدقهم وأمانتهم وفي تنوع تقديرهم للأمور وذلك لعدة أسباب، من بينها اختلاف الظروف التي عاشوا فيها، ومن هنا كانت للرحلات قيمتان: الأولى علمية والثانية أدبية¹.

تأتى القيمة العلمية للرحلة فيما تحتويه من معلومات جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها، مما يدونه الرحالة من خلال المعاينة في غالب الأحيان عبر اتصاله المباشر بالطبيعة والبشر وكل أشكال الحياة. ويمثل الرحالة دور الناقل لهذه المظاهر ليضعها بين أيدي الجغرافيين والمؤرخين وغيرهم. وقدم الرحالة العرب خلال الفترة الوسيطة خدمات جليلة في دراسة أحوال البلاد العربية والإسلامية، بل امتد اهتمامهم إلى الدول المجاورة في آسيا وأوروبا.

* جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة.

¹ حسني محمود حسين، *أدب الرحلة عند العرب*، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1983، ص. 5

أما القيمة الأدبية في الرحلات، فتتجلى فيما تعرضه موادها من أساليب ترتفع بها إلى علم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني. وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من الحكيم القصصي إلى الحوار والوصف وغيره، فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد والتشويق، بما يقدمه من متعة ذهنية مما حدا بشوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب "خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي: تهمة قصوره في فن القصة"¹. وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته واعتماده أسلوبا يفيد المعنى مع تبني عنصر التشويق. ويرى جورج غريب أن أدب الرحلة "أثار اهتماما بالغا بسبب تنوع وغنى مادته، فهو تارة علمي وتارة شعبي، وهو طورا واقعي وأسطوري على السواء، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة، لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب"².

1. مفهوم الرحلة في التراث العربي الإسلامي

تعني الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال. يقال رحل الرجل إذا سار، فالرحلة هنا بمعنى السير والضرب في الأرض. وجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر، والترحل والارتحال والانتقال وهو الرحلة، والرحلة اسم الارتحال³. وقد جاءت بمعنى السير والانتقال والوجهة أو المقصد، الذي يراد السفر إليه، بمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه أو اقتراب وقت الرحيل. ولهذه المعاني كلها كان لفظ "رحلة" يطلق على من انتقل من مكان لآخر ومنه أخذ لفظ "رحال": وهو اسم فاعل بصيغة المبالغة يقصد به الشخص المتنقل من مكان لآخر⁴. فالشخص الذي قام بالرحلة، قد ترك

¹ شوقي ضيف، *فنون الأدب العربي: الرحلات*، طبعة دار المعارف، بيروت، 1978، ص. 6.

² جورج غريب، *أدب الرحلة*، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1991، ص. 12.

³ حول التعريف اللغوي للرحلة، أنظر محمد بن منظور، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، 1955، مادة: "رحل".

⁴ يعرف ابن منظور الرحلة بأنها اسم فاعل للرحل الذي هو مركب للبعير والناقة، وجمعه أرحل ورحال. قال الأزهري: فقد صح أن الرجل والرحالة من مراكب الرجال دون النساء. والرحل في غير هذا: منزل الرجل ومسكنه وبيته. ويقال: دخلت على الرجل رحله أي منزله. والرحل: مسكن الرجل وما به من الأثاث. والرحالة هي سرج من جلود ليس فيه خشب كانوا يتخذونه للركض الشديد، والجمع الرحائل. والرحل هو رحل البعير. والرحول والرحولة من الإبل هي التي تصلح أن ترحل، وهي الرحالة تكون للذكر والأنثى فاعلة بمعنى مفعولة، وقد يكون على النسب، وأرحلها صاحبها: راضيا حتى صارت راحلة. محمد بن منظور، م. س، *لسان العرب* ... مادة: "رحل".

أما السفر فيعرفه بقوله: "سَفَرُ البيت وغيره يَسْفَرُهُ سَفْرًا: كنسه، والمسْفَرَةُ: المِكْنَسَةُ، وأصله الكشف. والسَّفَارَةُ، بالضم: الكُنَاسَةُ. وقد سَفَرَهُ: كَشَطَهُ وسَفَرَتِ الرِّيحُ الغَيْمَ عن وجه السماء سَفْرًا فائسَفَرَتْ: فَرَّقَتْهُ فتفرق وكشطته عن وجه السماء، وأنشد: سَفَرُ السَّمَاءِ الزُّبُرُجَ المُرْتَبَجَا الجوهرية: والرياح يسافر بعضها بعضا لأن الصَّبَا سَفَرٌ ما أسدته الدُّبُورُ والجُوبُ للجم. والسَّيْفِيرُ: ما سقط من ورق الشجر وثَلَّتْ. وسَفَرَتِ الرِّيحُ التُّرابَ والوَرَقَ تَسْفِرُهُ سَفْرًا: كنسته، وقيل: ذهبت به كلُّ مَذْهَبٍ. والسَّيْفِيرُ: ما تَسْفِرُهُ الرِّيحُ من الورق، ويقال لما سقط من ورق العُشْبِ: سَفِيرٌ، لأن الرِّيحَ تَسْفِرُهُ أي

موطنه وانتقل إلى مكان آخر وسافر من موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها، لذا كان لفظ "رحلة" أعم وأشمل ما يطلق على المسافرين من مكان إلى آخر، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو "رحلة"¹.

وردت الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية. حيث لم يدع الإسلام وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان، إلا وحته على فعلها ومنها الرحلة سواء أكانت للعلم أو للهجرة من أرض الشرك إلى أرض الإسلام أو الحج أو التجارة². وكانت أولى الرحلات الثابتة لدينا والمستقاة من أوثق وأصدق مصادرنا الإسلامية وهو القرآن الكريم الذي حفل بالأمثلة العديدة لكل نوع منها، على الرغم من عدم ورود لفظ "رحلة" فيه، إلا مرة واحدة في سورة قريش³. وقد وظفت السورة بكاملها للحديث عن رحلة قريش التجارية انطلاقاً من مكة إلى الشام واليمن والتي جنت منها قريش أرباحاً طائلة انعكست آثارها على أوضاعها الاقتصادية⁴. أما في السنة النبوية فقد روي عنه قوله (ص): "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"⁵. وهذا دليل على أن الرحلة فرار بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، وأشهرها هجرة المسلمين إلى الحبشة، فراراً من اضطهاد وظلم قريش، ثم هجرة الرسول (ص) وأصحابه من مكة إلى المدينة المنورة، فراراً بالدين وخوفاً من الفتنة، ورغبة بما وعد الله من التوسعة في الرزق، وثبوت الأجر في حالة الوفاة قبل بلوغ البلاد المنتقل إليها⁶.

وتعد كتب الرحلات من أهم ما تركه العرب من تراث جغرافي نتيجة لجهود ضخمة، بذلها الرحالة المسلمون في البر والبحر، ودفعهم إليها الميل إلى المعرفة الذي

تكسبه، قال ذو الرمة: وحائل من سفير الحول جائله، حوّل الجرائم، في ألوانه شهبُ يعني الورق تغير لونه فحال وابيض بعدما كان أخضر، ويقال: اشقرَّ مَقْدَمُ رأسه من الشعر إذا صار أُلْجَح. والانسفارُ: الانحسارُ. محمد بن منظور، م. س، لسان العرب... مادة: "سفر".

¹ عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص. 29

² عواطف نواب، م. س، الرحلة المغربية الأندلسية... ص. 40

³ سورة الأنعام، آية، 11

⁴ عواطف نواب، م. س، الرحلة المغربية والأندلسية، ص. 30

⁵ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري بحاشية السندي، بيروت، دار المعرفة، 6/1.

⁶ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، (د.ت)، 5/ 347 - 351، سيد قطب، في ظلال القرآن، ط 9، دار الشروق، 1980، 2، ص. 745 - 746، عواطف نواب، م. س، الرحلة المغربية الأندلسية، ص. 33

يواكب فترات نهضة الحضارة لدى شعوب العالم المختلفة. واعتمد الرحالة في هذه الكتب أسلوباً يقوم على الوصف، لذلك، اتسمت هذه الرحلات بغزارة مادتها، التي تتحدث عن البلدان أو البحار وما فيها من العجائب وشملت فوق ذلك كتباً تحمل اسم رحلات معروفة ومحدودة مثل رحلة ابن جبير أو رحلة ابن بطوطة¹.

وأصبحت الجغرافية الوصفية ضرورة عملية، بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية مما تطلب معرفة الطرق التي تربط بين أصقاع هذه الدولة الفسيحة. وكان لابد من معرفة السكك والمسافات بين الأماكن، مما أدى إلى ظهور كتب المسالك، مثل كتاب ابن خرداذبة الذي يبحث في طرق المواصلات بين المدن الإسلامية المعروفة في عصره. وفيه ذكر للإنتاج الزراعي والضرائب والخراج وهذا وليد الحاجة الإدارية²، حيث شرح مضمون كتابه بقوله إنه يتناول "مسالك الأرض وممالكها وصفتها وبعدها وقربها وعامرها وغامرها"³.

2. التطور التاريخي للرحلة وتوالي اهتمام الدراسات بها

بدأ تأمل العرب للعالم من حولهم في أسفارهم التجارية، وفي رحلات الشتاء والصيف، التي ذكرها القرآن الكريم. ثم شكّلت الفتوحات نقلة واسعة، فكلما فتح إقليم قاد ذلك إلى التدخل في الناحية المجاورة له. وعندما اكتمل قيام الدولة العربية الإسلامية، بدأت الكتابات في "رؤية العالم" وموقع العرب والمسلمين ودولتهم أو خلافتهم فيه. فبدأوا بترجمة كتب "الأقاليم السبعة" عن الفرس والمجسطي أو الجغرافية عن بطليموس اليوناني. كما أولوا الاهتمام للحسابات الفلكية، بحيث كثر الانفتاح على علوم الإيرانيين والفرس والهنود. نتج عن هذه المجهودات العلمية أن وضعوا أنفسهم في إقليم العالم الأوسط وهو الإقليم الرابع، مما مكنهم من وضع دلائل التوطن الخاصة بهم ومؤشرات التنقل وتحديد المسافات انطلاقاً من مركز الإقليم الرابع. ساهمت هذه المجهودات في تطور علم الرحلة عند العرب المسلمين عبر مراحل لعبت فيها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت منها الدولة

¹ عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي في الكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية بمصر الجديدة، 2004، ص. 74
² عباس فاضل السعدي، دراسات في تراث العرب الفكري، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2001، ص. 32

³ ابن خرداذبة، م. س، المسالك والممالك ... ص 3

العربية الإسلامية دورا بارزا¹. ويمكن لنا أن نتتبع تطورها التاريخي من خلال طبيعة الرحلات وكذا ما خلفته من إنتاجات علمية تشهد على مستوى تطور الرحلة عند العرب المسلمين.

خريطة رقم 1، خريطة التوسعات الإسلامية خلال القرنين السابع والثامن الميلادي



يتفق جمهور الباحثين في الرحلة على أن عصر النشأة والتطور استمر إلى حدود القرن الثالث للهجرة حيث كانت فيه مجهودات العرب موجهة إلى الآفاق عن طريق البحر بحكم أن الإقليم الرابع كان محاطا به من ثلاث جهات، وكانت الرحلات ذات طبيعة تجارية أكثر ما كانت ترمي إلى التعرف على البلدان الأخرى. لم تخلف هذه الفترة مؤلفات تؤرخ لهذه الرحلات بحكم طبيعتها غير أنها فتحت أبواب المغامرة والرحلة على مصراعيه في وجه العرب. وتجلت خلال القرن الثالث للهجرة أولى الشذرات المعرفية عن الرحلة انطلاقا من الرحلة التي قام بها سلام الترجمان إلى بلاد الصين ليشاهد السد الذي شيده الإسكندر في ديار يأجوج مأجوج بإفادة من الخليفة

¹ حسن محمد فهم، عن الرحلة والرحالة، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ع. 138، 1989، ص. 10 - 12

الوثائق (842 - 846 م). وقام أيضا الرحالة ابن وهب القرشي إلى الصين إذ التقى بسلطان البلاد الذي عرض عليه صورا لأنبياء وضمنهم صورة للرسول (ص). كما قام أحد تجار العراق المعروف بسليمان برحلات عبر المحيط الهندي والمحيط الهادي إلى بلاد الصين والهند. وقد دون هذا التاجر رحلته سنة 237هـ/851 م في حجم كتاب يصف فيه طريقه إلى الصين عبر البحار الذي يعد أقدم نتاج عربي في مجال الرحلة البحرية. علاوة على ذلك، هناك رحالة آخرون ومنهم محمد بن موسي المنجم واليعقوبي وابن خرداذبة وابن رسته وابن الفقيه.

خريطة رقم : 2، خريطة العالم الأولى للإصطخري

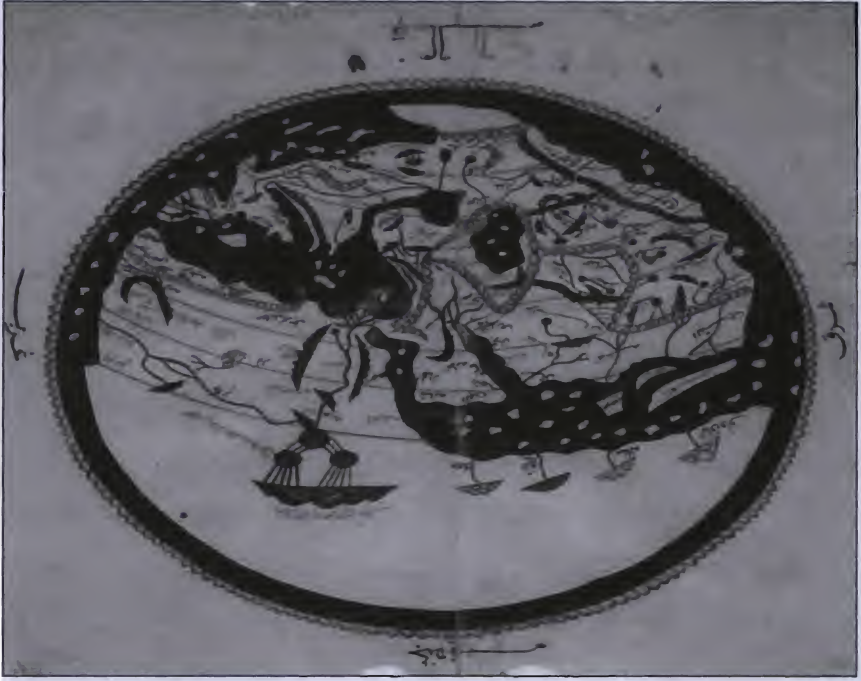


واستطاع قادة جيوش العرب المسلمين خلال القرن الرابع للهجرة نشر معاني الديانة الإسلامية في أنحاء العالم من خلال الفتوحات المستمرة. كما تمكن تجار العرب من إبلاغ الدعوة الإسلامية إلى أقاليم لم يصلها الجيش الإسلامي. تطلبت هذه الوضعية الجديدة تنشيط بعثات دينية تعلم الناس فرائض الإسلام وما يتعلق به، وأيضا تنظيم دبلوماسية إلى حكام وملوك الأقاليم المجاورة للإمبراطورية العربية الإسلامية مثل بعثة ابن فضلان إلى ملك البلغار سنة 309هـ / 921 م. وخلف هذا العصر العديد من مشاهير الرحالة ومنهم أبو زيد البلخي والإصطخري وقدامة بن جعفر والمسعودي وابن حوقل وأبو دلف مسعر بن مهلهل والمقدسي والمهلبى وبزرک بن شهریار الناختاه ولكل

منهم نتاج مستقل في مجال الرحلة. ولعل أشهر رحلة عند العرب خلال القرن الخامس للهجرة هي التي قام بها البيروني، فقد رافق السلطان محمود الغزنوي في فتوحاته بالهند واستقر فيها نحو أربعين سنة يبحث ويفحص، فدون ما تقع عليه عينه بكل دقة من التحقيق. فكان نتاجه في هذا المجال هو " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ". وسار على منوال هذا الرحلة العديد من الرحالة العرب الذين طافوا الأرض في هذه الفترة من الزمان ومنهم ابن بطالان وأبو عبيد البكري وغيرهم وقد خلف كل منهم كتابا في مجال الرحلة.

ومن أشهر الرحالة العرب خلال القرن السادس للهجرة تلك التي قام بها الإدريسي الذي تنقل بين الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى حتى حط رحاله في صقلية وألف كتابه المشهور في هذا المجال فهو " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ". وممن اشتهروا في إنتاج أدب الرحلة في هذا العصر أبو بكر بن العربي وأبو حامد الأندلسي وأسامة بن منقذ وابن جبير، الذي لا يزال نتاجه مشهورا في الشرق والغرب على السواء. وأبرز القرن السابع للهجرة الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي خلف مؤلفات كثيرة في اللغة والفلسفة والطب وعلوم الدين. أما كتابه في الرحلة فهو " الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ". وقد عاصره أيضا مجموعة من الرحالة ومنهم ياقوت الحموي وابن سعيّد الأندلسي والعبدري. أنتج القرن الثامن للهجرة قمة ما خلفه أدب الرحلة عند العرب المسلمين من أمثال ابن بطوطة المعروف برحالة العرب والذي خصص من حياته ما يربو عن 26 سنة في التجوال، نتج عنها كتابه الشهير " تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار " الذي أملاه على الكاتب ابن الجزي. وختم هذا القرن مجال الرحلة بما تركه ابن خلدون من كتاب في الرحلة بعنوانه " التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ".

خريطة رقم 3، الرسم الكروي لخريطة العالم عند الإدريسي



كان من نتاج هذا الكم من الرحلات أن أفرزت مصنفات تخص أدب الرحلة انطلقت من كتب التعريف بالأقاليم ثم أعقبها كتب المسالك والممالك، وأخيرا كتب المسالك والبلدان. قام بتدوينها علماء وهواة ومبعوثون ومغامرون ومستكشفون مما نتج عنه تنوع في طبيعة الرحلة وأسلوب كتابتها وتعدد مراميها. وتجمع كلها في تقديم نصوص تراثية تصور المعاينة الفعلية للمواقع والأحداث وتقل الأخبار من مصادرها، مما يجعلها ترقى إلى قمة المصادر التاريخية التي يتم اعتمادها في كتابة تاريخ الفترة الوسيطة. وتذهب بعض الدراسات المتخصصة إلى تقديم نحو أمانتي نص للرحلة تغطي الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، إلى القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي وهي في الغالب مذكرات سجلها الرحالة يوماً بيوم أو بعد عودته من الرحلة حيث دون فيها ما علق في ذهنه من فضول المعرفة أو فضول الاستكشاف أو حب التواصل مع الآخر المختلف، داخل دار الإسلام أو خارجها.

شكل هذا الصنف من الأدب العربي إرثا معرفيا تناقله الرواة والمهتمون العرب المسلمون بعد القرن الرابع عشر الميلادي إلى أن أثار اهتمام الأوربيين خصوصا مع مرحلة الحروب الصليبية التي كانت تتطلب منهم معرفة الإقليم الرابع. ونتج عن هذا أن حظي أدب الرحلة العربية بعناية الغرب خصوصا وأنه أخذ يستفيق من سبات القرون الوسطى. وبدأت شذرات هذا الاهتمام بما قدمه الجغراف في الإدريسي من خدمة جليلة للغرب عبر وضع ما جمعه من علم ومعرفة بين أيديهم. وجاءت مرحلة الاكتشافات الجغرافية وما تطلبت من رصيد معرفي لمجموع الأقاليم حتى يتسنى لأوروبا تحقيق مشروعها التوسعي، فوجدت في كتب الرحلة وما خلفته الجغرافية العربية مصدرا مهما لإغناء مواردها العلمية والمعرفية¹.

وازداد الاهتمام بتراث الرحلة العربية الإسلامية مع ظاهرة الاستشراق حيث عالج المستشرقون الأدب الجغرافي العربي بمنهج تاريخي يهتم بالمصادر وطبيعة المعلومات وتناقل الخرائط وترتيبات الفلك وصورة الأرض وأقسامها لدى اليونان والفرس والهنود وما أضافه العرب. وقد برز في هذا المجال الباحث "فيستفلد" الذي نشر "معجم البلدان" لياقوت الحموي، "ودي غويه" الذي نشر "المكتبة الجغرافية العربية" والتي شملت عشرة نصوص جغرافية تنتمي جميعا إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادي عشر للميلاد. ثم جاء "كراتشكوفسكي" ليستد إلى نشرات السابقين للنصوص وملاحظاتهم، فيكتب كتابه: "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"². وبعد الحرب العالمية الثانية حيث تقدمت الدراسات والمناهج، بدأ الاهتمام، من جديد، بأدب الرحلة العربية، خصوصا وأن منطقة شبه الجزيرة العربية أصبحت محط اهتمام القوى الغربية لما تزخر به من ثروات طبيعية. فانصب اهتمام الباحثين على الرحلات العربية في البر والبحر، والنصوص التي سجلوها عن أنفسهم، ودلالات تلك النصوص على رؤى الذات والآخر، وكيف تعامل الرحالة العرب مع الآخر، ومكانة موقع دار الإسلام في "العالم المعمور" ثم كيف فسروا العلاقات الاجتماعية والاقتصادية

¹ حسن محمد فاهيم، الرحلات اكتشاف للعالم والإنسان، في أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ع. 138، 1989. ص. 42 - 17

² Kratchkovsky, La littérature géographique arabe, Annales de L'institut des Etudes Orientales, Faculté des lettres et sciences humaines, université d'Alger, tome XVIII-XIX, 1960 ; ID, Les géographes Arabes des XI et XII siècles en Occident, traduction du chapitre X des œuvres choisies, IV, Moscou-Léningrad, 1957, p. 272- 310

والإنسانية بين "الممالك" الإسلامية، والممالك الأخرى الدانية والنائية وكان من أهم المؤلفات في هذا الموضوع كتاب "جغرافية دار الإسلام البشرية" للدارس الفرنسي آندرية ميكيل¹.

وأعطت مرحلة بداية تهافت الدول الغربية على استعمار الدول العربية سواء في إفريقيا أو آسيا دفعة قوية لهذا النوع من الدراسات. حيث ساعد اكتشاف ونشر وترجمة المخطوطات العربية على توفير أدوات عمل جيدة للجغرافيين من علماء البعثات الاستعمارية ومكنتهم من تحسين وتعميق دراساتهم عن البلاد العربية وفهمها فهما جيدا. فاقتنصوا كل ما ورد عنها من أخبار في كتب المتقدمين من المسلمين واطلعوا فيها على أقدم الأوصاف التي وردت عنها، فاستعانوا إلى حد ما بمروج الذهب للمسعودي عن إفريقية وبلاد آسيا²، واهتموا بما ورد عند ابن خرداذبه (ق.3هـ - 9م) في كتابه المسالك والممالك وبكتاب البلدان لليعقوبي ومؤلفي الإصطخري وابن حوقل (ق 4هـ - 10م)³، اللذين ظهرا في سلسلة الجغرافيين العرب التي كانت جامعة ليدن تضطلع بنشرها، كما تم إخراج عمل المقدسي سنة 1873 ومعجم البكري⁴ بمدينة لايبزيغ الألمانية سنة 1876-1877، واحتفوا بشكل خاص بمسالك البكري. واستمر رواد البعثات الاستعمارية في مزيد من البحث عن كنوز العرب ذات الصلة بإفريقيا الشمالية، فقام "دوزي و دي كويج" بتخريج وترجمة الجزء الخاص بالمغرب والأندلس من كتاب الإدريسي (ق.6هـ - 12م)، وكانت النزهة معروفة قبل هذا التاريخ في أوروبا كمختصر بعنوان : "Geographia Nubiensis" وصدر بروما سنة 1592م، وقام بترجمته المارونيان "سيونيتا" و"هيسرونيتا" وقام بالتعليق على هذا المختصر "هارتمان"، ويجب، في هذا الشأن، التذكير بعمل أحد الجغرافيين المجهولين الذي نشره "كريم" ولم يكتف هؤلاء العلماء باقتفاء أثر كل ما له علاقة ببلاد

¹ حول نماذج من الترجمة الفرنسية لبعض الرحلات انظر : IBN HAUQAL, *Configuration de la terre*, trad. G. Wiet, Paris, 1964. IBN DJUBAIR, *Les Voyages...*, trad. M. Gaudetfroy-Dernombynes, 4 vol., Paris, 1949-1956.

² نشر هذا الكتاب لأول مرة مع ترجمة فرنسية لمحتواه سنة 1863، وذلك من قبل المستشرق باربي دو ماينار، وكان قد صدر قبلها في "المجلة الآسيوية، انظر، M. M. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris 1861-1877

³ تعود أول ترجمة لكتاب الإصطخري إلى الألمانية. إلى الأستاذ مويلر بين سنتي 1870 و 1873، وقام بعده دوسلان بإنجاز ترجمة فرنسية للجزء الخاص ببلاد المغرب من كتاب ابن حوقل وعنوانه ب"وصف إفريقيا" وصدر هذا العمل بباريس سنة 1842، كما أنجزت ترجمة انجليزية لكل الكتاب بعنوان : The oriental Geography of Ibn Haoukal

⁴ Geographisches Worterbuch , publié par Wustefeld , Leipzig , 1876-1877

إفريقيا في كتب الجغرافيا والتاريخ بل إنهم بحثوا في كل ما تركه الرحالة والحجاج عن المسالك التي استعملوها في ذهابهم من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق من أجل إقامة شعائر الحج. وفي هذا الصدد عرف شيربونو Cherbonneau بمقتطفات من رحلة العبدري (ق.7هـ - 13 م)، كما نشر "ويستفيلد" كتاب ياقوت الحموي (ق.7 - 8 هـ)¹، ومختصره المشترك² والمراسد³. ولما أخرج "رانك وأيشهورن" "وسولفيت"، نص أبي الفدا (ق.7 - 9 هـ)⁴ المتعلق ببلاد المغرب، اعتبره "دوسلان ورينو" غير كاف فنشر الأول بتواز مع ترجمة هذا العمل متبوعة بمقدمة لا غنى عنها لدارس الجغرافيا العربية⁵.

ومع منتصف القرن العشرين بدأت تطفو إلى السطح بعض الدراسات باللغة العربية اتخذت من الرحلة العربية مصدرها الأساسي فظهر ما أصبح يعرف في الأوساط الجامعية بـ "أدب الرحلة". وأعقب اهتمام المؤرخين بالرحلة كأحد المصادر التاريخية خصوصا وأنها تحتوي على شواهد حية لفترات غابرة فظهر ما أصبح يعرف عند جمهور المؤرخين بـ "الجغرافية التاريخية"⁶. كما اهتم علم الاجتماع بتراث الرحلة العربية باعتبار أنها تقدم مادة علمية حول تقاليد وعادات ونمط حياة الشعوب التي احتك بها الرحالة. وفي الآونة الأخيرة اهتم الجغرافيون بالرحلة خصوصا وأن الكثير منها خلف مجموعة من الصور والخرائط بالإضافة إلى تسلسل المعلومات وتنوعها مما يعطي إمكانية تكوين بنك للمعلومات تساعد على بناء الخرائط التاريخية.

3. أصناف كتب الرحلات الجغرافية العربية

يعرف أدب الرحلات، بالنثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة موضوعاً، عندما تكتب في شكل أدبي ثري متميز، وبلغة خاصة من خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة. وهناك من يرى أن أدب الرحلات هو من أهم فنون الأدب العربي مثل ما ذهب

¹ - Mo'djem el Boldān , Geographisches , Leipzig , 1866-1871.

² - نشره ويستفيلد في غوتنبيرغ سنة 1846

³ - Lexicon Geographicum, ed.Juynboll , Leyde ; 1850-1852.

⁴ - Description du Pays du Maghreb, Alger, 1839.

⁵ - جغرافية أبي الفدا مترجمة من العربية إلى الفرنسية، نشرت بباريس سنة 1848 وصدرت في جزأين، وشكل هذان الجزآن القسم الأول وأتم ترجمة القسم الثاني غويار ونشره بباريس سنة 1883

⁶ - حسن محمد فاهيم، أدب الرحلات والسعي إلى التراث، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ع. 138، 1989. ص.

إليه شوقي ضيف في كتابه الرحلات¹ مدفوعاً بحماسة شديدة للأدب العربي القديم لإثبات القصة في ذلك الأدب. ولكتب الرحلات في تراثنا العربي أكثر من قيمة مهمة، إذ إنها تضم كثيراً من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية، مما يدونه صاحب الرحلة تدوين المشاهد، وذلك من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة والناس وبالحياة. بمعنى أنه ينقل ما يراه ليضعه بين أيدي الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الاجتماع والاقتصاديين ودارسي الأدب، وهو فن يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور. ومما لا شك فيه أن الرحالة يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظاتهم، وفي درجة اهتمامهم وفي نوع هذا الاهتمام، ومن هنا كان للرحلات قيمة تتمثل فيما تحويه من منابع ثرية لمختلف العلوم؛ ولها قيمة أدبية تتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى أودية الخيال، وانفعالات النفس وانطباعاتها، وما يتسم به أدب الرحلة من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار والوصف، وغيره وبما يقدمه من متعة ذهنية كبرى.

وهناك رأي آخر مفاده هو أن هناك قيمة عليا لأدب الرحلات وهي القيمة الإنسانية، لأنها تعد أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان. ويقول المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم": "ما تم لي جمع هذا الكتاب إلا بعد تجوالي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك ومجالستي الثقات، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعايشة مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي، حتى عرفتھا، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتھا، ودوراني على التخوم حتى حررتھا، وتنقلي على الأجناد حتى عرفتھا وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفتني في الألسن والألوان حتى رتبته"². والحقيقة أن الرحلات كانت من دعائم الفكر العربي في عصور الإسلام الأولى، حيث كان حج البيت، وطلب العلم من أهم دوافع هذه الرحلات؛ فلقد عرف العرب السفر ومارسوا الترحال في شبه الجزيرة العربية والبلدان المتاخمة، وقاموا برحلاتي الشتاء والصيف اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وأبحرت سفنهم في المحيط الهندي. والإسلام

¹ شوقي ضيف، فنون الأدب العربي: الرحلات، طبعة دار المعارف، القاهرة، 1978، ص.6

² محمد بن أحمد أبو بكر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1978، ص.2.

من خلال البيان القرآني دعا إلى السياحة في الأرض وكان يهدف من وراء دعوته للرحلة والسير في الأرض، أن يتسلح المرء بالنظر الدقيق، والرؤية الموضوعية المتجردة، والعبر الواقعية وقد تجاوز أدب الرحلات النمطية التقليدية من حيث رصد لحظات السير، مع تصوير الأماكن إلى تصوير بعض عادات الشعوب.

وتختلف الأسباب الداعية إلى شد الرحال، حيث قسمها محمد الفاسي حسب أسبابها وأهدافها إلى خمسة عشر قسمًا وهي: الرحلة الحجازية والسياحية والرسمية والدراسية والأثرية والزيارية والسياسية والعلمية والمقامية والدليلية والخيالية والفهرسية والسفارية وأخيرًا الرحلة العامة¹. ومن الرحالة من سجل أحداث رحلته لحظة بلحظة، وكتب فيها كل ما يعن له وما يشاهده، ويعلق على كل مشهد رآه أو بصره إما بإسهاب وتحليل، وإما اكتفى بكتابة رؤوس موضوعات، ودلالات أسهب في وصفها لاحقًا، ومنهم من كتب أحداث رحلته بعد مرور وقت طويل عليها اعتقادًا منهم أن ما يبقى من ذكرى الرحلة هو فقط الجدير بالكتابة.

إذن، الرحلة هي فن أدبي جميل يلزم امتلاك كاتبه أدواته الخاصة به والمتمثلة في سعة ثقافته، ودقة ملاحظته، والتقاط الملامح المعبرة. وفي الرحلات دروس ومواقف وأشخاص ومتعة للخيال والذهن، وهو أدب شهى بما يقصد من العلم والأدب والنز، وقد يطلق على أدب الرحلات المغامرات الرحلية لأن الكاتب فيها يصف انطباعاته الحسية والوجدانية والفكرية حيال المرنثيات والأحداث التي تصادفه، والأخبار والمعلومات التي تثير اهتمامه، ويركز عليها، ومنها أمور مشتركة فيما بين الرحالة ومنها أمور خاصة ومتميزة ينفرد فيها الواحد عن الآخر، ولاسيما في عمليات المواجهة مع العالم الجديد. والرحلات في الأدب الإسلامي لا تخرج عن المنظور الرحلي مضمونًا وفنًا، وأصحابها ينطلقون من موقع واحد، وصعيد واحد في مواقعهم ورؤاهم وتصورهم الإسلامي.

تدفعنا طبيعة موضوعنا والمصادر التي اعتمدناها إلى الوقوف عند خصوصيات صنفين من الرحلة وهما: الرحلة الجغرافية والرحلة الحجازية إلى الديار المقدسة باعتبار أن مصادرنا التاريخية لهذا الموضوع تتشكل أساسًا من هذين الصنفين من المصادر التاريخية.

¹ محمد عثمان المكناسي، *الإكسير في فكاك الأسير*، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص. 17.

أ - الرحلة الجغرافية

يعتبر أدب الرحلات، ذلك الفن الذي يصور فيه الكاتب ما وقع له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان. وتُعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها ممتعة مسلية. ويعرف أدب الرحلات باعتباره مجموعة الآثار الأدبية، التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة يقصدها لغايات شتى، واصفاً ما يراه من عادات البشر وسلوكهم وأخلاقهم، مُعتنياً بذكر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، ويعتبر أدب الرحلات مصدراً مهماً للدراسات التاريخية المقارنة، وخصوصاً بالنسبة إلى العصور الوسطى.

خريطة رقم:4، خريطة العالم المنسوبة للكندي والسرخسي



برع العرب المسلمون في عدة علوم خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، منها علم الجغرافيا على الخصوص¹، إذ صُرّفت جهود كبيرة ومتزايدة إلى دراسة الفكر الجغرافي العربي وتطوّره. واعتاد كثير من كتاب الغرب أن يصفوا جهود المسلمين بأنها متألفة في مجالات عديدة من التخصصات العلمية، وفي مقدمتها الرحلات الجغرافية²، بسبب ما ورثه العرب من معارف قديمة غربية وشرقية، استخدموها في استحثاث خطوات التقدم العلمي لديهم. فما كانوا مجرد مقلدين بل كانت لديهم خصائصهم من العزم والعقل والكفاية، مما أبرز الطابع الفريد لهذا العلم³.

وقد بلغ الأدب الجغرافي العربي الإسلامي ذروته في القرنين الرابع والخامس الهجريين، إذ شكل أدب الرحلات مصدراً هاماً من مصادر المعرفة الجغرافية في التراث العربي الإسلامي بشكل خاص والتراث العالمي عامة⁴. وبعد الفتوحات العربية الإسلامية، وخصوصاً لما أصبح الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءاً هاماً من العمل الإداري للدولة، صار وصف الأقاليم والعناية بها جزءاً من أخبار الفتوح والمغازي والتنظيم. ثم جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث ثروتها ومقدرتها على دفع الضرائب. وهنا نجد أول استقلال لهذا العلم لما أصبح يطلق عليه الجغرافية الإدارية أو السياسية القائمة على الفتوح والمغازي وأخبارها لخدمة الدولة⁵.

¹ أطلق المسلمون على معارفهم الجغرافية أسماء عديدة، إذ أن المفهوم الجغرافي لم يكن تخصصاً مستقلاً بذاته كالعلوم الأخرى. ومصنفاتهم في هذا المجال يمكن إدراجها تحت مسمى المصنفات الكوزموغرافية، وهي المصنفات التي تبحث في مظهر الكون وتركيبه العام وتشمل إلى جانب الجغرافيا علمي الفلك والجيولوجيا. لذا فإن الكتابات الجغرافية كانت تسمى وفق محتوياتها، فمن ذلك علم الأطوال والعروض وعلم تقويم البلدان إذا كانت ذات محتوى فلكي. وما غلب على محتواها وصنف المسالك وطرق المواصلات سميت علم البرود (جمع بريد) أو علم المسالك والممالك. واتخذت المصنفات الجغرافية التي تصف مجموع المناطق والبلدان اسم علماء لأقاليم، وعلم عجائب البلدان، وعلم البلدان، وما قد تناولت المناخ جاءت تحت اسم علم الأنواء، وما قد تناولت الجغرافيا الفلكية سميت علم الهيئة، واستخدموا مصطلح صورة الأرض قاصدين به مصطلح جغرافيا الحالي.

² شكري الألوسي، المسلك الأصفر في تراجم علماء بغداد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بغداد، 1940

³ صبري الهيّتي وآخرون، الفكر الجغرافي وطرق البحث، جامعة الموصل، 1985، ص. 4

⁴ أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص. 319؛ أحمد أبو

سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، دراسات ومختارات، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت 1998

⁵ جسد هذا الصنف من الرحلات الجغرافية كتاب "المسالك والممالك" الذي وضعه ابن خرداذبة في أواسط القرن التاسع للميلاد (القرن الثالث للهجرة) الذي هو عبارة عن تقرير عن جباية العباسيين وكتاب "الخراج وصناعة الكتابة" لقدامة بن جعفر الذي هو الآخر تقرير لجباية الدولة ووصف للطرق والمسافات.

جدول رقم : 1 ، أهم الرحالة الجغرافيين العرب المسلمين إلى أواسط القرن السادس

عشر الميلادي

الرحالة الجغرافيه	الفترة الزمنية
مؤرخ السدوسي (195هـ ، 810م)	من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري
النضر بن شميل (204 هـ ، 820م.)	
هشام الكلبي (204 هـ ، 820 م.)	
الخوارزمي ، محمد بن موسى (232هـ ، 846 م.)	
الكندي (260هـ ، 874 م.)	
المروزي ، جعفر بن أحمد (274هـ ، 887 م.)	
البلاذري (279هـ ، 892 م.)	
اليقوبى (284هـ ، 897 م.)	
السرخسي ، أحمد (286 هـ ، 899 م.)	
الإصطخري نحو سنة (300هـ ، 912 م.)	
ابن خردادبة (312هـ ، 924 م.)	
البتاني (317هـ ، 929 م.)	
البلخي ، أبو زيد (322هـ ، 934 م.)	
الرازي ، أحمد بن موسى (324هـ ، 936 م.)	
سهراب أبو الحسن حوالي سنة (330هـ ، 941 م.)	
الهمداني (334هـ ، 945 م.)	
المسعودي (346هـ ، 957 م.)	
التاريخي محمد الوراق (363هـ ، 973 م.)	
ابن حوقل النصيبي بعد سنة (367 هـ ، 978 م)	
السيرافي ، أبوزيد (368هـ ، 979 م)	
المهلبى (386هـ ، 996م)	من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري
البوزجاني ، أبو الوفاء (388هـ ، 998 م)	
المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله (390هـ ، 1000 م)	
البيروني ، أبو الريحان (440هـ ، 1048م)	
ناصر خسرو بعد سنة (455هـ ، 1063م)	
البكري ، أبو عبيد (487هـ ، 1094م)	
الزمخشري ، أبو القاسم (538هـ ، 1144 م)	
الإدريسي ، الشريف (560هـ ، 1164 م)	
أبو حامد الفرناطي (565هـ ، 1170 م)	
المغربي ، علي بن موسى (593هـ ، 1197 م)	

ابن جبير الكناني (614هـ، 1217 م)	
ياقوت الحموي (626هـ، 1229 م)	
القزويني (628هـ، 1230 م)	
ليفغادي، عبد اللطيف (629هـ، 1232 م)	
المراكشي، أبو علي حسن نحو سنة (660هـ، 1262 م)	
محمد الوطواط الكتبي الوراق (718هـ، 1318 م)	
الدمشقي الأنصاري الصديقي (726هـ، 1326 م)	
أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (732هـ، 1331 م)	
ابن الوردي، سراج الدين (749هـ، 1348 م)	
العمرى، ابن فضل الله (749هـ، 1348 م)	
ابن بطوطة (779هـ، 1377 م)	من القرن الثامن إلى القرن العاشر الهجري
ابن خلدون (808هـ، 1406 م)	
المقريزي (845هـ، 1441 م)	
ابن ماجد النجدي (895هـ، 1489 م)	
الحميري، محمد بن عبد المنعم (900هـ، 1494 م)	
المهري، سليمان بن أحمد (بعد سنة 950هـ، 1543 م)	

عرفت، الرحلات الجغرافية، تطورا مع استقرار الدولة، وتزايد الإقبال على الحج، وانتقال التجار وأهل العلم والرحالين والجغرافيين، حيث تطور تدوين الأخبار والمعلومات عن طريق وضع مناهج تضمن أمانة نقل المعلومة، والتيقن من صحة الخبر، واعتماد الدقة في الوصف الجغرافي مع بروز منهج التحرر من الأسلوب الفقهي القائم على العنونة والسرد المتوارث، إلى تبني منهج التجريح وإيتاء البرهان. ويمكن بوجه عام تمييز اتجاهين أساسيين في الأدب الجغرافي العربي، فهو من ناحية يولي وجهه شطر العلوم الدقيقة، باعتماد الحساب والهندسة والفلك والموسيقى¹، ومن ناحية أخرى يولي وجهه شطر الأدب الفني الإبداعي بالارتكاز على النحو والبيان والجدل. وفي موازاة هذين الاتجاهين تشكل اتجاه آخر ينهل منهما معا، وهو منهج الجغرافية الوصفية، الذي ترتبط به ارتباطا وثيقا قصص الرحلات والمغامرات والاستطلاعات، التي تطورت بشكل متواز والفتوحات العربية الإسلامية في كل الاتجاهات والبلدان، حتى أن

¹ أنظر G. FERRAND, *Introduction à l'astronomie nautique arabe*, Paris, 1928

البعض يرى أنها كانت اللبنة الأولى التي اعتمدت عليها الدولة الإسلامية لمعرفة الأقطار غير المعروفة قبل فتحها¹.

وعرفت الرحلة الأدبية الجغرافية تطورا، انطلق قبل القرن السابع الميلادي. وقد احتفظت لنا هذه الفترة بمعلومات متناثرة في الأدب العربي شكل اللبنة الأولى لهذا العلم. وكان القرن التاسع الميلادي عصر الانبعاث، إذ تم فيه التعرف على مصنفات بطليموس وترجمتها إلى العربية. كما ظهرت أصناف أخرى تعتمد على الجغرافية الوصفية للبلدان والأقاليم التي وصلها الفتح العربي أو تعرف عليها الكتاب والرحالة². ومع نهاية القرن التاسع الميلادي ظهرت المداخل الجغرافية التي وضع بعضها كتاب الدواوين في الدولة الإسلامية. كما تفرع أدب الرحلة إلى شطرين احتفظ الأول بطابعه الإبداعي وتسخير الخيال والمبالغة في تقديم مواده، وتبنى الاتجاه الثاني الواقعية التي تركز على المعاينة والتيقن من المعلومة الجغرافية والحدث التاريخي في سياق أدبي وصفي³.

وبلغ الأدب الجغرافي أوجه خلال القرن العاشر الميلادي، وذلك بظهور المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب، بما تميزت به من اهتمامها بصنف "المسالك والممالك" وصلتها الوثيقة ب"أطلس الإسلام" الذي يمثل قمة الكارتوغرافيا عند العرب. وقد أدى تزايد الاهتمام بهذا العلم إلى تبسيط المصنفات وتقريبها إلى الجمهور، مما أدى إلى بروز فروع متعددة ومتنوعة من أدب الرحلة الجغرافية عند العرب.

تعتبر فترة القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي، مرحلة النضج في الجغرافية التاريخية العربية، حتى أن الباحثين يقرون بوجود أربعة اتجاهات في التأليف الجغرافي العربي. اهتم الاتجاه الأول بأقطار العالم الإسلامي، جسد هذا الاتجاه كتابات البلخي والاصطخابي وابن حوقل والمقدسي⁴. وتخصص الاتجاه الثاني في تقديم قطر واحد،

¹ أحمد أبو سعد، مظاهر الحضارة والعمران وتجلياتها من خلال كتب الرحالة، مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد، 51، 1988، ص - ص. 26 - 48.

² أنظر R. BRUNSCHVIG, Un aspect de la littérature historique géographique de l'Islam, M.G.D., Le Caire, 1935, - 1945, p. 147 - 906 ; C. DE VAUX, Les penseurs de l'Islam, I - V, Paris, 1921 - 1926

³ أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان للطباعة والنشر، جدة، ط. 1 عن مكتبة المتنبّي للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

⁴ أنظر نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في القرون الوسطى، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1943، ص. 56 - 72 ؛ وأنظر أيضا للمؤلف نفسه، م.س.، الرحلة العربية، ... ص. 37

وجسد هذا الاتجاه كل من المهذاني الذي قدم وصفا دقيقا عن "صفة الجزيرة العربية" والبيروني الذي وصف "الجزيرة الهندية". وعمد الاتجاه الثالث إلى وضع المعاجم الجغرافية مع مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر)، وجسده البكري وكتاب ياقوت الحموي "معجم البلدان": خزانة أدب وعلم وأخبار وتاريخ وجغرافية¹. وظهر الاتجاه الرابع مع مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) على شكل موسوعات من صنف "نهاية الأرب" للنويري و"صبح الأعشى" للقلقشندي و"مسالك الأبصار" لابن فضل الله العمري. وكل هذه الكتب اهتمت بالجغرافية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ومع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، انضمت إليها مصادر أخرى من نوع جديد، تمثل في المعاجم الجغرافية والأوصاف العامة لبلدان العالم الإسلامي ليشكل ثورة علمية حقيقية، جمعت بين الرسم الكرتوغرافي للبلدان والأقاليم والتوثيق التاريخي والوصف الأدبي، مما أفرز صنفا آخر من الإبداع الفكري، من خلال ظهور الموسوعات الإقليمية.

اتسمت مؤلفات أدب الرحلة الجغرافية عند العرب، خلال القرون الوسطى، بطابعها الأدبي القائم على الوصف الشامل بدلا من العرض المفصل والعميق للمناطق والأقاليم، موضوعة الاهتمام². أضف إلى هذا أن منهج النقد لم يطبق دائما في الإنتاج الأدبي، مما أدى إلى تناقل أخبار تتسم بالمبالغة والخيال. يضاف إلى هذا ضعف المصادر وقلة الإحالات مما يضعف من مصداقية معلوماتها الجغرافية والتاريخية وإن كانت في بعض الأحيان تبقى هي المصدر الوحيد³.

على الرغم من ذلك، يجب الاعتراف بالأهمية العلمية لأدب الرحلات الجغرافية العربية، والتنوع الكبير في فنونه وأنماطه. ففيه تتقابل المعطيات العلمية الفلكية والرياضية والمداخل الجغرافية والأحداث التاريخية والخيال الأدبي. نتج عند المزج ظهور مصنفات أدبية يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة، ومن جهة ثانية بين الإمتاع والحيوية. هذا التنوع تجده تارة علمي موجه للخاصة وتارة تجده مبسط يهم

¹ البكري عبد الله بن عبد العزيز معجم ما/ستعجم، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1945

² عبد الرحيم مؤذن،/نبية الرحلة، دار الثقافة، الطبعة، 1، القاهرة، 1996

³ تعرض باحثون عدة إلى دراسة الجوانب التاريخية ومنها الاجتماعية في الرحلات العربية، نذكر كمثال على ذلك، مقال محمد حناوي، نزعة المشتاق، مصدر أساسي لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مجلة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، العدد5، 1983، ص - ص. 57 - 71؛ ومن الدراسات في هذا المجال كذلك، مقال أحمد أبو سعد، مظاهر الحضارة والعمران وتجلياتها من خلال كتب الرحالة، مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد، 51، 1988، ص. 26

العامة. لذا يقدم لنا مادة دسمة، متعددة الجوانب، تتطرق من الأسطورة إلى الجغرافية والتاريخ، لتشمل أحوال البلدان وساكنتها، وتشكل أحد أهم المصادر التاريخية للعالم الإسلامي، خلال الفترة الوسيطية.

ب - الرحلة الحجازية إلى الديار المقدسة

تمثل كتابة الرحلة المقدسة صنفا متميزا من الكتابة الأدبية التي عرفها التراث العربي منذ دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا وجنوب أوروبا، مع رحلات ابن رشيد وأبي القاسم التجيبي والعبدي وأبي البقاء البلوي وابن الخطيب السلماني والمقري الجد والقصادي وغيرها¹. تعددت دوافع وأسباب هذه الرحلات، ومنها الشوق إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة. لذلك يتصاعد هذا الهاجس ليتحول إلى شوق وحنين، ينتظر لحظة الانفراج وتحقيق الرغبة. حتى إذا ما تمت الرحلة، كان الحافز قد اكتمل لتسجيل لحظة الوصول واللقاء، والحديث على مراحل الزيارة، وأماكنها، وتأدية المناسك بها، ووصف الطريق وأهلها، والمسالك المؤدية إليها. ولطالما انعكس هذا الشوق والحنين على الرغبة، فحرك فيها قوة الفعل كما تعكسه مطالع بعض الرحلات الحجازية².

ومنذ القديم كانت أيضا الرحلة إلى المشرق، وارتداد آفاق العلم به، ولقاء شيوخه، السمة الأولى المميزة للطبيعة العلمية، عند طلاب العلم ورجاله في الأندلس والمغرب. فكان من الثوابت الأساسية في كتابة الترجمة عند أصحاب الطبقات والتواريخ والصلوات في المغرب والأندلس - التنصيص على رحلة المترجم، ومدتها الزمنية، وأسماء الشيوخ الذين لقيهم واستفاد منهم، والمصنفات التي استحضرها معه عند العودة وأدخلها إلى بلده، والروايات والأسانيد والمصنفات التي حصل عليها وارتبط بها³.

¹ محمد حسين هيكل، في منزل الوحي، مطبوعات دار المعارف، القاهرة، 1979، ص. 64، محمد المختار السوسي، أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الولد، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1961 م

² مصطفى محمود، الطريق إلى الكعبة، دار العودة، بيروت، ط 1، 1971؛ محدث الشام الشيخ محمود ياسين، رحلة الحج والعمرة، دار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1988؛ عبد السلام المكي، بنحي حج وحاجة، دار أمل، طنجة، 1973

³ محمد بدیع شریف، في مهبط الوحي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، المدينة، 1973؛ محمد عباس المالكي الحسني، شفاء الفؤاد بزيارة خير العباد، مطبعة النجاح الدار البيضاء، 1993؛ محمد سويد، رحلة العمر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 1، 1987.

تتضافر مع هذين الدافعين، دوافع أخرى، يكون لها الأمر في كتابة الرحلة وصياغة موادها، منها مجرد الرغبة في بعض الأحيان - في تسجيل أحداث الرحلة، والتعريف بالمسالك والممالك، ووصف الطريق والمجتمعات المقيمة بها. والتركيز على ما يحتاجه الراحل من مواد، والتذكير بما يصادفه في الطريق من أسواق، وما يوجد بها، وما يقتنيه هنا أو هناك - عاملاً في كتابة الرحلة، فيسجل الراحل مشاهداته وملاحظاته، قاصداً بذلك الإفادة برسم الطريق وظروفها ومراحلها، وفي بعض الأحيان عجائبها، كما هو الأمر في الرحلة العجيبة لابن بطوطة، أو الرحلة الاقتصادية كرحلة أبي سالم العياشي الصغرى¹.

وقد تكون الرحلة الحجازية المقدسة تقريراً مفصلاً لنشاط الراحل أو الوفد الذي ينتمي إليه كاتب الرحلة، فيسجل كل ما يتعلق بأحداث الرحلة، وبخاصة في الرحلة التي تكون المهمة فيها سفارية. كما أنها قد تكون مجرد رصد لمراحل التنقل وأسبابه ودوافعه، وما ينتج عن ذلك من ظروف وحالات ولقاءات وغير ذلك. كما يحدث في الرحلات الداخلية المحدودة في المكان والزمان. وقد يعتمد إلى تحويل رحلته من وصف للمشاهد والطريق إلى تأليف في الحج ومناسكه، فيكون العمل مجالاً تأليفياً تطبيقياً، تراعى فيه الإفادة العلمية، والتوجيه الديني، للراغب في الحج وتأدية المناسك على الصورة الصحيحة².

ويصاحب في الغالب، هذا الوصف لممارسة المناسك في وجهها التطبيقي، حديث يأخذ بالوجه النظري لمناسك الحج، ويستعرض التصور الفقهي له، وما تضمنته مواقف بعض المصنفات الفقهية تجاهه، وكيفية الحسم في تقرير بعض الاجتهادات في الموضوع، إما باستحضار نص الحديث قولاً أو فعلاً، وإما بالاعتماد على ما سبق من أقوال الأئمة واجتهادات الشيوخ. وقد تحاول أن تسجل هذه الرحلة ما ينتاب الحاج من شوق وحنين إلى الحج، وزيارة قبر الرسول (ص)، وما يحمله من تسرع في تحقيق رغبة الوصول، وتطلع إلى مواجهة معالم الحج، والزيارة المقدسة³.

¹ الحسن بن محمد الغسال، *الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية*، تقديم ونشر عبد العزيز خلوقة التمساني، ط 1، شركة سليكي إخوان، طنجة، 1998.

² محمد كامل حته، *في ظلال الحرمين*، دار المعارف، القاهرة، 1978.

³ أنظر الحسن الشاهدي، *أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني*، منشورات عكاظ، ج. الأول، الرباط، 1990، ص. 106 - 63.

كما تحتفظ الرحلة، في الأغلب برصد آثار المواجهة الأولى لهذا العزم عند الحاج، وما يحدثه من انفعال في نفسه، وهو يشاهد هذه المعالم أول مرة في واقعيتها، بعد أن ظل وجودها لديه ذهنياً. فيحدث لديه جملة من الانفعالات من جراء صدمته الأولى أمامها، مما يحول الموقف إلى موقف خشوع وتبتل وعبادة، ورهبة وسكينة، ويفجر لديه من الأحاسيس والانفعال، ما تعكسه تلك الآداب والأعمال الشعرية التي ينشدها تعبيراً عن هول هذه الصدمة في المواجهة، وكشفاً عن مخلفاتها في نفسه، وإثارة لما يحمله من وقع هذه المعالم، وقديسيته في وجدانه ووعيه. ومن ثم فإن التعبير عن هذه المواقف، هو أمر، لا تكاد تخلو منه مواد رحلة من الرحلات الحجازية المقدسة، مما يجعله من الثوابت المشتركة في عمل الرحلة. غير أن نسبته تبقى قائمة، لثفاوت القدرات الأدبية عند أصحاب هذه الرحلات، وطوعية العمل الشعري عند هذا دون ذاك، مما يجعل أمر التعبير عن هذه الآثار والمواقف تتباين بين إيجازها والتوسع فيها.

ويصادف، في الأغلب، التعبير الأدبي عن هذه المعالم والآثار، حديثٌ يستحضر به المشاهد الصورة التاريخية لهذه المعالم، إما في مكة وبين ربوعها ومعالمها، وبخاصة البيت العتيق، ومقام إبراهيم، وأبواب الحرم، ومنزل الرسول (ص) والصحابة وغيرهم، وإما في المدينة المنورة حيث المسجد النبوي وروضة قبر الرسول (ص)، ومدافن الصحابة، وغير ذلك من المعالم. فيتذكر ما تنقله أحداث السيرة النبوية ومغازيها، ويورد ما تحتفظ به كتب التاريخ بمكة والمدينة، كتاريخ الأزرق لمكة، وغيره¹.

والحديث عن المعالم التاريخية في الحجاز، وبخاصة المقدسة منها، يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين مختلف الرحلات الحجازية، رغم تفاوت القدرة على الوصف أولاً، واستحضار التواريخ المرتبطة بها في السيرة والمغازي بين كتاب هذه الرحلات، إلا أنها في عمومها، تحتفظ بحظها من الوصف العمراني والتاريخي لهذه المقدسات: البيت العتيق والحرم ومسجد الرسول (ص) وبعض معالم مكة والمدينة والبقيع وأحد وبدر وغار حراء وبعض المساجد، كمسجد قباء ومنى وعرفات وغيرها. وتتخذ هذه المعالم التاريخية واقعاً تأتلف به مع هؤلاء الرحالة، فيتمثل حضورها من خلال الثقافة، والسيرة عندهم.

¹ إبراهيم حلمي، كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج، سلسلة كتاب اليوم، العدد 320، 1991م.

4. الرحلة كمصدر معرفي لكتابة التاريخ العربي الإسلامي

شكل التاريخ والجغرافية، عند العرب، فرعان متقاربان من فروع شجرة المعارف العامة المعروفة بالأدب. ولذا فإن عدداً من الرواد كانوا مؤرخين وجغرافيين في الوقت نفسه¹. وقد شهد القرن الرابع الهجري وهو قرن ازدهار الحضارة الإسلامية، اهتماماً واسع النطاق بالمصنفات الجغرافية التي عرف بكتب البلدان²، حيث كان المسلمون يرحلون إلى الأنحاء المختلفة في العالم الإسلامي، يطلبون العلم ويجمعون الحديث أو يدونون الأدب ومفردات اللغة من عرب البوادي، أو يقومون بالوظائف الدينية والإدارية المختلفة من قبل الخليفة أو الأمير. كذلك اعتنى المسلمون بعلم تقويم البلدان عناية خاصة لحاجتهم إلى معرفة الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، للقيام بفريضة الحج والعمرة وزيارة المسجد النبوي. هذا بالإضافة إلى عناية العرب بالتجارة منذ العصور القديمة، والتي كانت واسعة بين الشرق والغرب، حيث اشتهرت اليمن بوجه خاص في ميدان التجارة. كما كان أهل الحجاز من أشهر تجار العرب. ينضاف إلى ذلك حاجة المزارعين إلى معرفة أوقات الزراعة والنجوم والكواكب والطقس³.

وكان كتاب بطليموس الجغرافيا هو الأساس الذي نسج على منواله العرب حين بدأ نقل الجغرافية اليونانية إلى لغتهم. ولم يكتف العرب بالنقل، وإنما توسعوا في هذا العلم، وأخذوا يتجولون في أنحاء البلاد المختلفة واستطاعوا بذلك أن يصححوا كثيراً من أخطاء اليونانيين⁴. والمصنفات التي دونها الجغرافيون المسلمون عن رحلاتهم، لم تظهر ظهورا واضحا إلا في العصر العباسي الثاني، وعلى وجه التحديد في أوائل القرن الثالث الهجري. على أن تلك المصنفات عنيّت في المرتبة الأولى بوصف أجزاء وأقاليم الدولة الإسلامية وما يجاورها والتي تحدثوا عنها في مؤلفاتهم التي عرفت باسم تقويم البلدان⁵. ومن ثم، فإننا نستطيع القول، بأن مؤلفات غالبية الجغرافيين المسلمين الأوائل إنما هي نتاج الرحلات التي قاموا بها، والتي اصطلح على تسميتها باسم تقويم البلدان

¹ مثل هشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة 204 هـ واليعقوبى المتوفى سنة 384 هـ، انظر أيضا حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الثانية، 1998، ص. 1

² عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح، المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب، مجلة المؤرخ العربي، ع. 5 المجلد الأول، مارس، 1999، ص. 203

³ انظر المرجع نفسه، ص. 42 - 42

⁴ سيده إسماعيل كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، 2001، ص. 31

⁵ أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، ص. 53

فلا نكاد نجد مصنفاً يحمل اسماً لرحلة اللهم إلا إذا كان صاحبها قد قام بالرحلة في إطار مهمة رسمية أو أحد التجار الرحالة الذين لا يلمون إماماً كافياً بالعلوم الجغرافية.

وأتيح للمسلمين في العصور الوسطى أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية. وأفادت أوروبا مما كان عند المسلمين من علم بأجزاء العالم المعروفة في القرون الوسطى. والحق أن ازدهار الحضارة الإسلامية وسيادة المسلمين في البر والبحر وطبيعة الدين الإسلامي، كل ذلك كان من شأنها أن يشجع على الأسفار والرحلات¹. فالجزء الأكبر من العالم المعروف في بحر الإسلام كانت تزدهر فيه مدينة الإسلام وتدير دفتها حكومة إسلامية. وحتى عندما فقدت الإمبراطورية الإسلامية وحدتها السياسية، منذ منتصف القرن الثاني الهجري، ظلت روابط الدين واللغة والثقافة تجمع بين سكان الدول الإسلامية فكانوا يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية إسلامية بعيدة الأطراف².

وهكذا نرى أن المسلمين في العصور الوسطى، أتيح لهم القيام بكثير من الرحلات والأسفار. والحق أن ما كتبه المؤلفون المسلمون في مابين القرنين الثالث والتاسع الهجري عن الرحلات كثير جداً ولكن المعروف أن الرحالة لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً. أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان. وارتبطت الرحلة بكثير من أعمال التراث الغربي في جوانبها المتعددة. ففي مجال الكشف الجغرافي ووصف الأقاليم مثلاً، لعبت الرحلة دوراً كبيراً فيما تضمنته تلك الأعمال من معرفة وبيان، أضحياناً تراثاً تفخر به الأمة العربية والإسلامية ويشيد بقيمته الدارسون والباحثون. وتأكيداً لدور الرحلة في التراث الجغرافي للعرب والمسلمين فإن عبد الله بن أحمد المقدسي المتوفى سنة 380 هـ، صاحب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" هو أحد أقطاب التراث الجغرافي العربي، في القرن الرابع الهجري، يؤكد لنا أهمية رحلاته في أنحاء العالم الإسلامي من أجل المعاينة وجمع المادة العلمية التي سجلها في كتابه³.

¹ حسن محمد فهم، الرحالة المسلمون ووصف ثقافة الغير، في أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ع. 138، 1989. ص. 173 - 200

² زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف بمصر، 1945، ص 6

³ حسن محمد فهم، ملامح حضارية لرحلة المسلمين البحرية، في أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ع. 138، 1989. ص. 201 - 224

وإذا انتقلنا إلى ذلك الصنف من التراث الذي يتصل بالتاريخ العربي الإسلامي، نجد أيضاً أن دور الرحالة لا يقل أهمية عن إسهامهم الكبير في إثراء المعرفة الجغرافية وتأصيلها. ويمكن أن نذكر على سبيل المثال أسماء الأعلام وعناوين الأعمال الكبيرة مثل صاحب مؤلف "مروج الذهب ومعادن الجوهر" أبو الحسن علي المسعودي الذي ابتغى من رحلاته العلمية دراساته لتاريخ وجغرافيا الإمبراطورية العربية الإسلامية ومعرفة مقدار قوتها بالمقارنة مع مثيلاتها في العالم المجاور لها¹.

لقد كانت الرحلة إذاً عوناً كبيراً للمؤرخ الجغرافي على حد سواء، وتأتي أهميته في صقل المنهج وتأكيد المشاهدة والمعاينة، الأمر الذي وثق المرنثيات وأكد حدوث الوقائع. هذا علاوة على ما وسعته الرحلة من أفق ومدارك لكل من الجغرافي والمؤرخ، بسبب اتساع دائرة اتصالها بالبلدان والأقوام وحوارها مع العلماء وأصحاب المعرفة بأحوال البشر وتقلبات الأحوال في الزمان والمكان. إلا أن أمر الرحلة وأهميتها لم يقتصر على الجانبين الجغرافي والتاريخي من أعمال التراث العربي، بل كان للرحلة أيضاً شأن في مجال الأدب والفلسفة².

واحتاج الناس قديماً إلى معرفة الطرق والبلاد إما للتجارة وإما للفتوحات، فكان عليهم أن يلجأوا إلى التجار والفاتحين لجمع ما لديهم من معلومات. ولما تم لهم شيء من ذلك أخذوا يتداولونه سواء أكانت هذه المعلومات تاريخية أو جغرافية. على أن لفظة جغرافية بحد ذاتها كافية للدلالة على أن مصدر هذا الفن ليست عربية، فكل ما ذكر للعرب قبل نقل الجغرافية إلى العربية وصف المدن والطرق والبلاد³. أما أول واضعي أساس هذا العلم فهم الفينيقيون أقدم تجار العالم وأكثرهم أسفاراً. فقد اطلعوا في أثناء أسفارهم على أحوال كثير من البلدان أو عرفوا المسافات بينها واطلعوا على تواريخ شعوبها وأخبارهم. بيد أن هناك عوامل أخرى دفعت الرحالة العرب إلى الاهتمام بالمسالك والطرق ومنها: أن الحج وهو فريضة على كل مسلم أينما كان، وأن الرحلة في طلب العلم تستلزم معرفة الأماكن والمناطق، وأن هناك اختلاف في طرق

¹ سعد زغلول عبد الحميد، ابن خلدون مؤرخاً تاريخ العرب والبربر في كتاب العبر، عالم الفكر، الكويت، المجلد الرابع عشر العدد الثاني 1983، ص. 311، حسن محمد فهم، م. س.، أدب الرحلات، ص 96

² حسين فهم، م. س.، أدب الرحلات، ... ص. 97

³ جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، الطبعة الأولى 1979 م، دار الثقافة، بيروت، سلسلة الموسوعة في الأدب العربي، العدد 7 ص. 25

الفتح باختلاف البلاد وفي طريقة الحكم وأخذ الجزية وتحصيل الخراج، مما كان يستدعي معرفة التاريخ والجغرافية لكل الأقاليم.

وعندما نقلت الجغرافية إلى العربية احتذى العرب على مثالها وزادوا عليها ما عرفوه من قبل، وتحققوا الأشياء بأنفسهم فأصلحوا كثيراً من مغالط بطليموس.. على أن هذا العلم لم يتضح إلا في القرن الرابع الهجري أي زمن نضج التاريخ. وهكذا نجد أثر الرحلات في كتب الكثير من نوابغ القرن الرابع الهجري أمثال ابن الفقيه الهمداني والمقدسي والمسعودي¹.

ومن أهم العوامل التي ساعدت على الرحلة²، واهتمام العرب بالجغرافيا والرحلات:

(1) وصف الأقاليم والعناية بها التي اعتبرت جزءاً من أخبار الفتوحات والمغازي. كما كانت أنحاء الدولة الإسلامية متسعة الأرجاء، تتطلب الدراسة والوصف، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة وتسهيلاً لمهمة الولاة، ومن ثم، فقد كان أول ما دُون في التاريخ الإسلامي هو تاريخ المدن والأقاليم التي ارتبطت بالفتوحات إبان صدر الإسلام.

(2) وصف المدن والبقاع، خاصة من الناحية الاقتصادية قصد مساعدة الدولة الإسلامية في تحديد ثروة البلاد والإقليم ومعرفة قدرتها على دفع الجزية والخراج.

(3) العامل الديني القائم على نشر الدعوة الإسلامية وجمع الحديث من أفواه الرواة من بعد.

(4) حرص الخلفاء على معرفة أجناس دولتهم وطرق التحكم فيها، لما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في العصر العباسي، مما جعلهم يهتمون اهتماماً خاصاً بصورة الأرض وما احتوت من بحار وأنهار وجبال وغير ذلك.

(5) تأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوي. وقد سجل لنا هؤلاء الحجاج مشاهداتهم وأحاسيسهم وكذلك الطرق والدروب التي مروا بها وسلكوها والأحداث التي صادفوها في مصنفات عرفت بكتب الرحلة.

¹ غريب جورج، م. س، أدب الرحلات،... ص 28

² أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، ص. 10 - 14

(6) ممارسة التجارة التي اتسع نطاقها عند المسلمين في العصور الوسطى، حيث قاموا بالارتحال في البحر وفي أديم الصحراء، بل لم يثبهم هول البحر من ركوبه والارتحال عبر شواطئه وموانئه¹.

إذا كانت الرحلات تجارب ومغامرات ورؤى للآخر" فهي أيضاً وصف توثيقي وأنثروبولوجيا وإثنولوجيا وسعة أفق". وقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً، وعني به أعلام بارزون، عبر مراحل التاريخ والرحلات من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية، لكشف المجهول والوصول إلى الغاية ومعرفة الحقيقة، والإطلاع على المعالم والآثار، والاستمتاع بمشاهد التاريخ ومعالم الحضارات ومظاهر الحياة وما تزخر به من جبال وبحار وأنهار وأنساب ونبات. ومازالت الرحلات إلى يومنا هذا مصدراً للتعرف على أحوال الأمم وثقافات الشعوب ومصدراً للمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع.

¹ حول هذا الموضوع أنظر، الفيل محمد رشيد، أثر التجارة والرحلة في تطوير المعرفة الجغرافية عند العرب، ضمن بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية، مركز البحوث، ج. 3، الرياض، 1984، ص. 159 - 180 ؛ وأنظر أيضاً عليه عبد الله سلطان، العلوم عند العرب، مجلة المنهل، العدد 500 م. 45، 1994، ص. 166.

